حرف الجيم بين الشمس والقمر

الأستاذ محبوب الحلبي
جامعة درهام ـ بريطانيا

يشغل حرف الجيم مكانا فريدا بين الحروف الاخرى بتنوع طرق لفظه فى اللهجات العربية الى درجة لا يكاد يضاهيه فيها اي حرف آخر ، فهو فى الشام رخو قريب الى الشين لما فيه من تعطيش بالغ وهو فى العراق اكثر شدة (1) ، فيه اثر ضئيل من التعطيش اما فى القاهرة فانه يلفظ شديدا مجهورا (2) على غرار ما يسميه البعض بالجيم القاهرية ، بينما نجده قد صار دالا فى بعض مناطق الصعيد المصري وياء عند بعض قبائل الكويت ، وجنوب العراق .

ومما يجدر ملاحظته ان هذه الظاهرة تشمل الحرفين J و G فى اللغات الاوربية وهما نظيرا الجيم فى العربية. اذ ان الـ J يلفظ ياء فى الالمانية وخاء فى الاسبانية ، وهو فى الانجليزية كالجيم العراقية وفى الفرنسية كالجيم الشامية . كما ان الـ G يلفظ احيانا فى الانكليزية والفرنسية كالجيم القاهرية بينما يتخذ فى احيان اخرى اشكالا كالتى اسلفنا ذكرها .

لقد سببت هذه التنوعات فى اللفظ مشاكل شتى فى اللغة العربية اخص منها مسالة الجيم كحرف من الحروف القمرية ، اذ كثيرا ما يجنح البعض من ابناء البلاد العربية وخصوصا فى العراق وسوريا الى لفظ الجيم كصوت شمسي اي بادغام لام المعرفة فى الجيم عند وقوعها فى اول الكلمة فيقولون اجمل بدلا من الجمل . ولا تقتصر هذه المشكلة على الصعوبات التى يلاقيها مدرسو اللغة العربية فى تلك الاقطار بل تتعداها الى احوال يرتكب فيها بعض الخطباء والمذيعين هذه الاخطاء فيتعرضون بذلك الى الكثير من النقد واللوم. على ان هذا الميل للفظ الجيم كصوت شمسي لا يعدو ان يكون ميلا طبيعيا تتطلبه السهولة فى اللفظ والجمال فى النطق ، وهذا يدفعنا لكي نضع استفهاما كبيرا عن سبب ابقاء الجيم بين الحروف القمرية دون الاخذ بالاعتبارات الاخرى التى تحيط بهذه المسالة .

---

(1) الصوت الشديد هو الصوت الانفجاري الذى يحدث بانحباس الهواء عند مخرج الصوت انحباسا تاما ثم انطلاقه فجاة عند انفتاح المخرج كالباء والتاء ، وعكسه الصوت الرخو.

(2) الصوت المجهور هو الصوت الذى يستوجب عنده اهتزاز الوترين الصوتيين اثناء مرور الهواء بهما كالدال والغين ، وعكسه الصوت المهموس .

يقول سيبويه « ولام المعرفة تدغم فى ثلاثة عشر حرفا لا يجوز معهن الا الادغام لكثرة لام المعرفة فى الكلام وكثرة موافقتها لهذه الحروف واللام من طرف اللسان وهذه الحروف احد عشر حرفا منها حروف طرف اللسان وحرفان يخالطان طرف اللسان ... والاحد عشر حرفا النون والراء والدال والتاء والصاد والطاء والزاي والسين والظاء والثاء والذال» واللدان خالطاها الضاد والشين » (3) . وبغض النظر عن السبب الذى جعل سيبويه لا يذكر اللام نفسها بين هذه الحروف الا ان الحروف الباقية وهي التى اصطلح على تسميتها بالحروف القمرية لا تدغم فيها لام المعرفة ويجمعها قولك ابغ حجك وخف عقيمه .

واود فى معرض هذا الحديث ان اؤكد الفرق بين حالتي الحرف المشار اليه هنا ، الاولى كرمز مكتوب تحفظه الكتب من التغيير عبر العصور والثانية كلفظ مسموع لم يكن هناك من وسيلة لحفظه قبل ظهور اجهزة تسجيل الصوت الحديثة . فالخلط بين الرمز واللفظ امر يجب تجنب الوقوع فيه فى حكمنا على الجيم وغيرها فى وقتنا الحاضر ، اذ على الرغم من ورود الجيم كحرف قمري منذ بدء اهتمام العرب بعلم الاصوات الا اننا لا نزال غير متاكدين من الطريقة التى كان يلفظ بها هذا الحرف عند قدماء العرب ، فقد جاء عن الخليل بن احمد الفراهيدي فى كتاب العين ان الجيم والشين والضاد شجرية لان مبداها من شجر الفم اي مفرج الفم (4) ، اما سيبويه فقد كان اكثر تفصيلا اذ يخبرنا ان من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الاعلى مخرج الجيم والشين والياء، كما انه وصف الجيم بانها من الحروف الشديدة المجهورة ، فهذه الاوصاف رغم اعطائها فكرة جيدة عن طريقة لفظ هذا الحرف فى ايام الخليل وسيبويه الا انها غير كافية لتدلنا على اللفظ بحذافيره .

وقد كانت هناك اكثر من محاولة من قبل المهتمين بعلم الاصوات فى وقتنا الحاضر لاستنتاج الطريقة التى كان ينطق بها هذا الحرف عند قدماء العرب فنجد الدكتور ابراهيم انيس يقول « ويظهر ان الجيم التى نسمعها الآن من مجيدي القراءة هي اقرب الجميع الى الجيم الاصلية، ان لم تكن هي نفسها » (5) . واغلب الظن ان المقصود هنا بالجيم الاصلية هي تلك التى كان ينطق بها ايام الخليل وسيبويه اذ ان من الصعب افتراض جيم اصلية لم يسبقها تطور فى اية مرحلة من مراحل التاريخ . ومهما يكن من امر فان الارجح ان الدكتور ابراهيم انيس كان متفائلا فى استنتاجه واننا فى الواقع لا نزال بعيدين عن التوصل الى صورة اكيدة للطريقة التى كان ينطق بها حرف الجيم التى وصفها سيبويه قريبة من التى نسمعها الآن من مجيدي القراءة القرءانية لوصفها ، كما وصف العين ، بانها بين الشدة والرخاوة ولما ابقاها بين الحروف الشديدة ، بل ان الجيم وردت كنموذج للحروف الشديدة فى الامثلة التى جاءت فى المفصل للزمخشري (شرح ابن يعيش) . وحتى فى القرن التاسع الهجري نجد ان ابن الجزري يعتبر الجيم من بين حروف القلقلة (6) وهي الحروف الشديدة المجهورة . وانا لا استبعد ان يكون تطور الجيم نحو شيء من الرخاوة نوعا من الحرص للابقاء على جهرها وهي بهذا تختلف عما هو اكثر شيوعا وهو الابقاء على الشدة والتطور من الجهر نحو الهمس .

وهناك دلائل تشير الى ان وضع الجيم لم يكن على درجة كبيرة من الاستقرار منذ تلك الايام وان هناك ميلا للانحراف بمخرج الجيم الى مخارج قريبة فسيبويه يكشف ذلك بقوله « ... وتكون اثنين واربعين حرفا بحروف غير مستحسنة ولا كثيرة فى لغة من ترتضي عربيته ولا تستحسن فى قراءة القرءان ولا فى الشعر وهي الكاف التى بين الجيم والكاف والجيم التى كالكاف والجيم التى كالشين والضاد الضعيفة ... » (7) كما نجد ان ابن الجزري بعد ذلك بعدة قرون ينصح بالتحفظ باخراج الجيم من مخرجها « فربما خرجت من دون مخرجها فينتشر بها اللسان فتصير ممزوجة بالشين كما يفعله كثير من اهل الشام ومصر وربما نبا بها اللسان فاخرجها ممزوجة بالكاف كما يفعله بعض الناس وهذا

(3) الكتاب، الجزء الثاني صفحة 416
(4) العين صفحة 2
(5) الاصوات اللغوية صفحة 65
(6) «النشر فى القراءات العشر» الجزء الاول صفحة 203
(7) الكتاب الجزء الثاني صفحة 404

موجود كثيرا في بوادي اليمن » (8) . على ان ابن الجزري لم يكن بنفسه واثقا من مخرج الجيم الحقيقي حيث يقول «للجيم والشين المعجمة والياء غيرالمديةمن وسط اللسان بينه وبين الحنك ويقال ان الجيم قبلهما وقال المهدوي ان الشين تلي الكاف والجيم والياء يلبان الشين وهذه هي الحروف الشجرية» (9). وعلى كل حال فان ابن الجزري يختلف هنا عن بعض اسلافه من امثال ابي علي القالي المولود في اواخر القرن الثالث الهجري والذي اعتبر ان مخرج الجيم يلي مخرج الضاد.

ان ما سبق يشير الى ان ثمة تطورا ما قد صاحب نطق الجيم طوال هذه المدة وان الجيم التي وصلتنا لتختلف بكل اشكالها الحالية عن نظيرتها لدى الخليل فلا عجب ان نجد الدكتور مهدي المخزومي يخبرنا في كتابه عن الخليل بان المحدثين يخالفون الخليل وسيبويه بالنسبة لمخارج الحروف الشجرية اذ هم يعدون مخرج الياء والجيم من بين مقدم اللسان وسقف الحنك الصلب والشين من بين اسلة اللسان او ما يليها وبين حافة الاسنان. وانا استبعد جدا ان يكون اختلاف الخليل وسيبويه عن جيلنا سببا عن خطأ منهما وما هذا الاختلاف الا نتيجة حتمية لتطور الجيم ودليلا كافيا على اننا ما زلنا بعيدين عن جيم القرن الثاني الهجري .

وها نحن اليوم ننطق بجيم عراقية ، وهي قريبة جدا لما نسمعه من مجيدي القراءة القرءانية ، واخرى قاهرية وثالثة شامية ورابعة تنطق ياء الخ .. انحدرت الينا كلها بهذه التشعبات بفعل عوامل معينة لا تبعد ان تكون هي نفسها التي سببت تشعب نظيرات الجيم في اللغات الاوربية . الا ان المهم في هذا البحث هو موضوع ادغام لام التعريف في الجيمين اللتين اسميتهما بالشامية والعراقية نظرا لان الملايين من الناطقين بالعربية يستعملونهما كل يوم . وعندهم تكون الجيم شمسية اذا تكلموا بصورة عادية وتكون قمرية اذا تكلفوا اللفظ واصطنعوا الفصاحة نزولا عند قانون سن منذ اثني عشر قرنا خلت فتغيرت الجيم وبقي القانون .

وادغام لام التعريف في الحروف الشمسية يتم بالدرجة الاولى نتيجة الاقتصاد في الجهد العضلي . وهو امر مسلم به منذ القدم كما يعبر عنه سيبويه بقوله « ليكون عمل اللسان من وجه واحد » ، فالحروف الشمسية كلها اصوات ذات مخارج لسانية قريبة من مخرج اللام وهذا يسبب تأثر الصوتين بالمجاورة وبالتالي ادغام لام التعريف وفناءها في الحرف الشمسي الذي يليها . بينما لو استعرضنا الحروف القمرية لوجدنا ان اللسان لا يستعمل الا في نطق ثلاثة منها وهذه بعيدة عن مخرج اللام على اي حال ، اما الجيمان الشامية والعراقية فللبرهنة على انهما ينتميان الى مجموعة الاصوات الشمسية اليك اختبارا بسيطا :

ضع لسانك في الموضع الطبيعي للفظ صوت اللام وابق لسانك في هذا الوضع ولكن بدلا من لفظ اللام اللفظ عبارة ابغ حجك وخف عقيمه ، وهي العبارة التي تجمع الحروف القمرية كما اسلفنا ، ستجد انك تستطيع لفظ العبارة كلها بوضوح فيما عدا الجيم اذا كانت شامية او عراقية .

ان هذا الاختبار على بساطته يرينا كيف ان عمل اللسان في لفظ اللام يكون «من وجه واحد» مع الجيمين وبذلك كان ادغام لام التعريف بهما مناسبا . وبصورة عامة فان هذا الاختبار يعطينا طريقة مباشرة لتقدير اهلية الصوت اللغوي لادغام لام التعريف به اي للحكم على كون الصوت شمسيا او قمريا .

وبناء على كل ما تقدم فانني لا ارى اي مبرر للاصرار على ابقاء الجيمين الشامية والعراقية في ضمن الاصوات القمرية وقد حان الوقت لكافة الذين تصادفهم هذه المشكلة ان يتقبلوا الامر على اساس من المنطق . اما الذين يستشهدون بسيبويه فاذكر لهم انه انما كان يتحدث عن رمز معين لا دليل لنا اليوم كيف كان يلفظ ، واني على يقين انه لو كان سيبويه اليوم حيا بيننا لوضع الجيمين الشامية والعراقية مع اللواتي « لا يجوز معهن الا الادغام » .

---

(8) « النشر في القراءات العشر » الجزء الاول صفحة 217 .
(9) المصدر السابق ص 200 .